رؤية إسلامية للثروة الحيوانية في المنظومة الكونية

د. مصطفى فايز

كلية الطب البيطرى

جامعة قناة السويس

ينبه القرآن الكريم إلى أن الحيوانات هى أجزاء مهمة فى المنظومة الكونية المتكاملة، وأنها أمم أمثالنا ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨]. أى إن الحيوانات مثل الإنسان؛ خُلقت فى بادئ أمرها من تراب، وأخذت مظهر الحياة، وتم تحديد أرزاقها وآجالها، حسب تقدير معين، وهى تعيش مجتمعة مثلنا، وتتقارب أو تتباعد من بعضها البعض وفق قوانين حاكمة ونظم خاصة فى دائرة التقدير الإلهى، وهى فى خصائصها المرئية والخفية تعد أممًا أمثالنا.

والقرآن الكريم يريد من العرب – وهم أول المخاطبين– أن ينظروا بدقة وتفحُّص إلى الإبل التى عرفوها جيدًا وهى جزء لا ينفصل عن حياتهم اليومية، فيقول: ﴿أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ [الغاشية: ١٧، ١٨].

والمخاطَبون بالقرآن الكريم كانوا يرون بكل تأكيد إبلَهم، ولكن القرآن الكريم يدعو الإنسان إلى أن ينظر إلى الطبيعة وكل ما تحويه بعين جديدة بإصرار واطراد بوصفها إشارات على وجوده سبحانه وتعالى.

وحينما يوبخ الله تعالى الكافرين يقول: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلا يَشْكُرُونَ﴾ [يس:٧١-٧٣].

والواقع أن الشىء الذى يريده المولى تعالى فى مقابل إنعامه على الإنسان بتلك الحيوانات ما هو إلا شىء بسيط يستطيع أى إنسان أن يقوم به. وذلك بأن يذكره جل وعلا ويشكره وذلك يظهر فى رعايته لها ورفقه بها ومعاملتها المعاملة الإنسانية اللائقة بعطائها وبأنها مخلوق من مخلوقات الله التى خلقها سبحانه بيديه وملكها للإنسان الذى أصبح بذلك مسئولا عنها مسئولية كاملة، خاصة أن الله سبحانه وتعالى ذللها له وجعل له فيها منافع كثيرة، وأعطاه منها لبنًا خالصًا سائغًا يصنع منه ما يشاء من أجبان ومصنعات يعمر بها الأرض والكون وهو يركب أيضًا الإبل والخيل ويقولَ: ﴿سُبْحَانَ الَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ [الزخرف: ١٣]. ويلفت القرآن النظر إلى الخيل أيضًا فهى مخلوقات تستحق أن يقسم بها المولى عز وجل: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا (١) فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا (٢) فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا (٣) فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا (٤) فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾ [العاديات:١- ٥].

المخلوقات جميعًا ملك لله عز وجل.. ونحن أمناء وخلفاء لله عليها.. ولسنا مالكين لها نتصرف فيها دون ضوابط

وحتى المخلوقات الصغيرة يجب أن نتواصل معها، وفى سياق قصة سيدنا سليمان يشير إلى وجود تواصل بين النمل والإنسان وبين النمل وبعضه البعض؛ فإنه عليه السلام كان يتقدم بجيشه من الجن والإنس والطير، وكان النملُ يتجه نحو وادٍ به حشد كبير من النمل على رأسه نملة، فقالت بلُغة مقبولة ومتداولة فيما بينها من خلال تواصل وتخابر خاص: ﴿يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ١٨]. ففهم سيدنا سليمان ما قالته النملة، وتبسّم وشكر ربه على تلك النعمة التى أنعم بها عليه حيث علّمه لغة الحيوانات.

والقرآن الكريم قد ذكر فى كثير من الآيات الطيور أيضًا؛ إنه يتعجب من أولئك الذين يطلبون من النبى إثبات وجود الله تعالى، فيتساءل: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ بَصِيرٌ﴾ [الملك: ١٩].

المخلوقات أمانة الله لدى الإنسان

فأساس مفهوم الطبيعة الذى بيّنه القرآن، يعتمد على أن جميع الكائنات (الحية وغير الحية) بما فيها الإنسان مخلوقة بيد الله سبحانه؛ فالإنسان والطبيعة بهذا المفهوم ليسا عنصرين منفصلين أو غريبين عن بعضهما البعض، بل

هما أمة خُلقت من قِبل الخالق نفسه. ويجب على الإنسان أن يتعامل مع الطبيعة والمخلوقات التى فيها بالمسئولية والرفق، فكلاهما خلقهما الخالق العظيم بيديه، ومن هنا فلا بد للإنسان أن يتصرف مع الكائنات التى خلقها الله بصورة أخلاقية لدى استفادته منها واستخدامه لها.

وعلى الإنسان أن يبحث فى العلوم الطبيعية وعلوم رعاية وتربية الحيوان والنظام العام لها، ويحاول فهم القوانين الدقيقة الرائعة المودعة فيها ويحاول الحفاظ عليها وتنميتها كما فعل سيدنا نوح.

والسبب فى كل هذا هو أن «الأمانة» (خلافة الله فى الأرض) عُرضت على السماوات والأرض والجبال ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾ [الأحزاب: ٧٢]. وإفساد التوازن البيئى جريمة تتناقض مع مفهوم خلافةٍ تُفسد

يوم الدين لن يكون يومًا للحساب على العلاقة بين الإنسان والإنسان.. وبين الإنسان والمجتمع فحسب، بل سيكون للحساب على العلاقة بينه وبين باقى المخلوقات

وتدمر نظام الطبيعة؛ لأن الخليفة يعنى الوكيل، والوكيل لا يجوز له أن يخون أمانة الموكِّل الذى قام بخلق نظام متكامل لهذا العالم وجعله بمثل هذا التناغم والتناسق. والذى يقوم بتخريب وإفساد هذا النظام والتناغم لا شك أنه وكيل سيئ.

فالإنسان له حق الاستفادة من مخلوقات الله، ولكن لا يعنى ذلك استخدامها بصورة غير لائقة. وعليه ألا ينسى أنه -بمقتضى الأمانة التى يحملها- مسئول عما يفعله وأنه سيحاسَب يومًا ما على ما اقترفه تجاه غيره من كل المخلوقات ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة:٧، ٨]. كما أن رسولنا الكريم قد نبّه إلى ذلك بقوله: «لتؤدّنّ الحقوقَ إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجَلْحَاء من الشاة القَرْنَاء» (رواه مسلم).

الحفاظ على الحيوانات ورعايتها مسئولية الإنسان:

ومن هذه الزاوية فإنه يتضح أن الله تعالى هو الذى خلق لنا هذه الأنعام كلها، وأن الشكر على هذه النعم مسئولية أخلاقية. والقرآن الكريم يلوم الذين لا يرون نعم الله كآى من آياته، ولا يتفكرون فيها أو لا يعتبرون بها، وفى النهاية يكفرون بنعم الله بدلا من أن يشكروها.

إن معاملة مخلوقات الله معاملة

سيئة ليس حرامًا فحسب، بل هو فى الوقت ذاته عدم احترام للخالق سبحانه الذى هو صاحب كل هذه النعم وخالقها بيديه. وعدم الحفاظ عليها لا يؤثر علينا فحسب، بل على الأجيال القادمة أيضًا. وقول الله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر:٤٩] ينبه إلى أن على الإنسان الحفاظ على هذا الـ«قدر» وعدم الإخلال به.

فجميع الكائنات مخلوقة لله تعالى؛ فالله تعالى هو الذى زين السماوات بالشمس والقمر والنجوم، وزين الأرض بمختلف الأزهار والأشجار والحدائق وغيرها، وهو الذى يُجرى الماء على الأرض ويمسك السماء بغير عمد وينزل الغيث، وهو الذى أوجد النباتات والحيوانات أزواجًا وحقق لها التكاثر، وفوق كل ذلك هو الذى خلق بنى الإنسان وجعله خليفة له فى الأرض.

إن المخلوقات جميعًا ملك للمولى عز وجل، ونحن أمناء وخلفاء لله على وجه الأرض، ولسنا مالكين لها حتى نتصرف فيها بما نشاء ودون ضوابط.. وكل شىء فيها عند دراستها وفهمها هو آية تدل على وجوده تعالى.

وعلى حين ينبهنا القرآن الكريم باستمرار إلى ذاك البعد الربانىّ للمخلوقات، فإنه يعود ويؤكد أن الإنسان الذى هو خليفة ومسئول عن كل أعماله الحسنة منها والسيئة سوف يحاسَب يوم القيامة عن كل تصرفاته حيال هذه الأمانة.

إن يوم الدين لن يكون للحساب على العلاقة بين الإنسان والإنسان وبين الإنسان والمجتمع وحسب؛ بل على العلاقة بين الإنسان وجميع المخلوقات أيضًا.

وخلاصة القول أن المسلم الحقيقى يهتم بحماية الحيوانات ورعايتها وتنميتها؛ لأنها ملك الله؛ فهو الذى خلقها وهو الذى ائتمننا عليها. إنه التزام واهتمام أخلاقى أكثر من كونه التزامًا قانونيًا.

فجميع الحيوانات الموجودة فى هذا العالم هى أمم مثلنا. وكل ما فى هذا العالم يسبح الله بلسانه الخاص به، ويتحرك نحو تنفيذ أوامر الله تعالى. والمحافظة على قوانين الطبيعة ما هو إلا تنفيذ لأوامر الله تعالى.

إن الإنسان بصفته خليفة الله له الحق فى أن يستفيد من جميع المخلوقات بشرط خضوعه لله تعالى، وطالما خضع لله، خضعت له المخلوقات وإذا خضع لله فإن الطير والحيوان والجبال ستعمل معه فى منظومة واحدة، وهذا فضل كبير من الله، ولقد أتينا داود منا فضلا ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ [سبأ: ١٠].

ولا تنس أن حسن معاملة الحيوان يؤدى إلى التحكم فيه كما أن حسن معاملة الجماد يؤدى إلى التحكم فى الجماد لدرجة أن يلين لك الحديد.